المقدمة

لقد ناقشت العلاقة بين التعليم والبحث مع عدد من الأشخاص في بلدان مختلفة، سواء ضمن ندوات علمية أو في حلقات دراسية حرة ومقابلات بحث ولقاءات. كما أنني ناقشت هذه العلاقة مع أشخاص من جامعتي، بمن فيهم الطلاب. وأهدف في هذا الكتاب، إلى الكشف عن مختلف الأمور التي كنا نتناولها. أريد أن أعدّ هذا الكتاب امتداداً للحوارات التي تناولت قضايا البحث والتعليم وكيفية دمجهما لتعزيز التعليم العالي. التي يتزايد، على ما يبدو، النقاش فيها بين العاملين في حقل التعليم العالي. كما آمل أن يسهم في تعزيز مثل هذه الحوارات.

لدي اعتقاد عميق بأن الأفكار المتعلقة بكيفية إمكان دمج البحث والتعليم تختلف من شخص إلى آخر في التعليم العالي، وأن تطوير هذه الأفكار يتوقف على نقاشات لا بد أن تدور بين الناس سواء أثناء جلسات الشاي، أو في لقاءاتهم الإدارية، أو فيما بين أفراد مجموعات البحث أو الفرق المشرفة على الدورات التعليمية أو المشاركة فيها. كما تتطور هذه الأفكار أيضاً أثناء النقاشات مع الطلاب ومع الهيئة التدريسية العامة أو المساعدة، إضافة إلى أشخاص آخرين من خارج نطاق الجامعة. لن يكون هذا التطور ممكناً، برأيي، إلا أثناء الحوارات التي تسودها روح التقصي عن المعنى، الذي يمكن أن ينطوي عليه التعليم العالي المعزز بالبحث أو المستند إليه، داخل بيئة معينة لديها الإمكانية لأن تطور هذه الفكرة.

أثناء حواراتي، التي أجريتها في الجامعات، حدثني بعض الأشخاص عن طريقة فهمهم لهذا الدمج، فبدت كأنها الطريقة الوحيدة التي يجب اتباعها للوصول إلى هذا الفهم. أتمنى أن يفتح هذا الكتاب جملة أوسع من الإمكانيات، وأن يقدم إطاراً مفاهيمياً لفهم مختلف وجهات النظر في إمكانية دمج البحث بالتعليم.

إنني معنية بتقديم طيف من وجهات النظر المختلفة. بما فيها بعض الأمثلة عن طرائق دمج البحث بالتعليم في حقول معرفية مختلفة في بلدان مختلفة. لقد عملت

لسنوات عدة في أقسامٍ أكاديميةٍ مركزية، مما أتاح لي التواصل مع كثير من الأشخاص في الوسط الجامعي. لقد حاول الناس -على مر التاريخ المديد للبحث- أن يدمجوا البحث والتعليم، وسأُفيد أنا من هذا التاريخ لأقرر إن كان ثمة رابط يجمعهما أم لا. غير أني لا أريد أن أفرغ، في قالب جديد، البراهين السابقة في ما إذا كان ثمة علاقة بين بعض أنواع مقاييس فعالية البحث وبين مقياس من مقاييس التعليم أو فعاليته؛ بل أرمي لأن أتجاوز ذلك كله نحو تطوير فهم ما يقتضيه دمج البحث والتعليم، إذا ما كنا جادين في تحقيق هذا الدمج.

إنني أقترح أن الهدف الرئيس من جعل البحث والتعليم كلاً واحداً هو تشكيل مجتمعات تعليمية شاملة لبناء المعرفة داخل الجامعات. وأشرح ما الذي أعنيه بذلك، ولماذا أعدّه أمراً مهماً، وأبيّن السبيل إلى تحقيقه.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول أرمي إلى تقديم مفاهيم مفتاحية؛ فأشرح في المقطع 1 السبب الذي يدفعني إلى الاعتقاد بأن دمج البحث والتعليم هو محور الاهتمام في هذه الأيام، وما أهمية ذلك بالنسبة إلى التعليم والطلاب على حد سواء؛ وما أهمية البحث بالنسبة إلى الطلاب. في المقطع 2، أختبر طرائق مختلفة للتدريس والبحث وتقديم المعلومات والتثقيف والفهم؛ وهي خطوة تمهيدية لطرح نموذج جديد يعدّ أن العلاقة بين التعليم والبحث تتجاوز أي فصل بينهما. وهنا أرى أننا بحاجة إلى إزالة الفواصل الموجودة في جامعاتنا بين الفئات المختلفة من الأشخاص. والمقصود هنا الأكاديميون والطلاب وأعضاء الكادر العام والمساعد.

وفي الجزء الثاني، يتمحور التركيز على التعلّم والتعليم والمنهاج. وقد اخترت أن أركز على التعليم في مرحلة ما قبل التخرج. لأنها تنضوي، حسب اعتقادي، على أهم التحديات والفرص. وفي المقطع 3، أدرس عدداً من الافتراضات التي تخلق حدود وإمكانيات كيفية التفكير في دمج البحث بالتعليم. يأتي، بعد ذلك، مقطعان يدرسان حالات يتحد فيها البحث مع التعليم، بطريقة ما. فيدرس أولهما، في بدايته، أمثلة عن دمج محدود للبحث مع التعليم، ثم يتقدم نحو دمج أكثر اكتمالاً. مع ذلك، تقف هذه الحالات عاجزة عن تطوير مجتمعات تعليمية شاملة لبناء المعرفة. أما المقطع

الذي يليه (المقطع 5)، فيعرض حالات يكون فيها البحث والتعليم أكثر اندماجاً. لكن الأكاديميين، مع ذلك، يظلون في هذه الحالات عاجزين عن إشراك الطلاب بعالمهم؛ إذ يُجري الطلاب أبحاثهم الخاصة، بمعزل عن الأبحاث التي يجريها المحاضرون. ثمة بعض الاستثناءات وهي مخططات أبحاث معينة لمرحلة ما قبل التخرج، ستتم مناقشتها في نهاية المقطع 5.

ثم يتحول الانتباه إلى البحث في التعلم والتعليم؛ إذ إن الاشتراك في أستذة التعليم والتعلم هي إحدى الطرق التي يتبعها الأكاديميون فتمكنهم من دمج بحثهم بتعليمهم. في المقطعين 6 و7 اعتمدتُ على خبراتي، وخبرات زملائي لتعليم الأكاديميين في جامعتنا كيفية إجراء البحث على تعليمهم. فأنا أحاول أن أبرهن أن من شأن ابتكار طريقة انعكاسية نقدية تعتمد على التقصي في التعلم والتعليم، أن يبرز بعض المشكلات المهمة في التعليم العالي هذه الأيام، ما يمكن أن يقود نحو التغيير. إضافة إلى ذلك فأنا أحاول أن أبرهن على أن مشاركة الطلاب في هذه العملية هي خطوة مهمة نحو تطوير مجتمعات تعليمية شاملة لبناء المعرفة داخل الجامعات.

وفي النهاية، يتحول التركيز في الجزء 3 مبتعداً عن التعلم والتعليم، ليبحث، (في المقطع 8) بادئ ذي بدء، كيف يمكن للتعليم أن يعمل على تقدم البحث وتعزيزه. بعد ذلك ننتقل في المقطع 9 إلى البيئة المؤسساتية والاجتماعية التي يتم فيها كل ذلك. وهنا ينصب اهتمامي على اكتشاف العوامل التي تكبح أو تعزز قدرات الأفراد والهيئات التدريسية والكليات والأقسام والمؤسسات على دمج البحث والتعليم. بما في ذلك، إستراتيجيات المؤسسات، مثلاً، وتقويم الأبحاث، والتمويل الذي تقدمه الدولة. وفي نهاية الكتاب، أي في المقطعين الأخيرين، أجمع هذه النقاشات كلها كي أحدد، أولاً، بعض الأبعاد لتقويم عملية التحرك باتجاه تطوير مجتمعات تعليمية شاملة لبناء المعرفة؛ ومن ثم، كي أجري -في المقطع الأخير- دراسة أولية لمضامين تعليم عالٍ جديد يستند إلى البحث. إن التحرك، برأيي، نحو مجتمعات تعليمية شاملة لبناء المعرفة، إنما يتجاوز دمج البحث والتعليم من أجل تأصيل طرق فهم تعتمد على التقصي، ليتجه نحو ممارسة أكاديمية أكثر تعميماً.

إنني تواقة إلى دمج البحث والتعليم، لأنني أؤمن بأن هذه الخطوة هي مفتاح الوصول إلى التعليم العالي، الذي يعتمد على التقصي. الذي أرى أننا سنكون بحاجة إليه في المستقبل. فإذا ما كان علينا أن نهيئ طلابنا لمستقبل لا يمكن توقع ملامحه؛ مستقبل سيعملون فيه على حل مشكلات لا يمكننا في هذه الأيام أن نتخيلها، يجب أن نطور لديهم إذاً مهارات التقصي. وإذا ما كنا بصدد الوصول إلى مرحلة نحل عندها بعض مشكلات العالم الكبرى، علينا إذاً أن نفكر إلى أي درجة يحتاج البحث إلى التغيير، ومن هم المعنيون بفعل ذلك؟

في العديد من البيئات، يقتصر إجراء الحوارات التي تتناول دمج البحث والتعليم، على المهتمين بحقل التعلم والتعليم، أو القائمين عليه. لذلك فالمطلوب هو إشراك مجموعات البحث في رؤية الفائدة التي يجنونها هم أيضاً من تحقيق هذه الخطوة. ويسعدني أن أعدّ نفسي ممثلة لمجتمعي التعليم والبحث على حد سواء. فأنا أكاديمية أعمل على التطوير وأحمل على عاتقي مسؤولية تغيير المنهاج في جامعتي، ما يجعلني أنتمي إلى مجموعة التعلم والتعليم. لكنني، في الوقت نفسه، باحثة. وقد أجريت التحقيقات وكتبت الكثير عن كيفية فهم البحث. لذلك، فأنا أتحدث أيضاً من منظور البحث العلمي دون شك. وكما أشرت سابقاً، فإن لكل شخص أفكاره الخاصة عن كيفية دمج البحث بالتعليم. لهذا، فأنا أستخدم الأسلوب الدارج في الكتابة أحياناً. وأدرج، أحياناً أخرى، حوارات محددة، كي أفسح المجال لبعض الأفكار والأشخاص الذين تحدثت معهم أن يعبروا عن أنفسهم، وذلك بهدف عرض مختلف الاتجاهات ووجهات النظر. لكن هذا الكتاب، يعبر، في النهاية، عن منظوري الشخصي، وقد تم تقديمه ليكون مورداً فكرياً، بأمل صياغة واستثارة المزيد من الحوارات.

الجزء الأول

دراسة العلاقة بين البحث والتعليم

لطالما تساءلت الدراسات عن وجود علاقة بين البحث والتعليم سواء على مستوى الأفراد من هيئات التعليم الأكاديمية، أو على المستوى الإداري أو المعرفي، أو على المستوى المؤسساتي أو العابر للمؤسسات. وقد اعتمدت هذه الدراسات على معايير مختلفة للبحث (مثل إحصاءات الإعلام والاستشهاد بالآراء، وعدد من منح البحث، وتقويمات محترفين، إلخ..) كما اعتمدت على عدد من معايير التعليم (مثل تقويمات وتقديرات الطلاب لفعالية التعليم، وتقويمات وتقديرات شخصيات بارزة، أو زملاء، إلخ..) إضافة إلى ذلك، ثمة محاولات لاقتراح العناصر الأساسية المشتركة بين البحث والتعليم. مثل التعلم، والتفكير النقدي أو الأستذة، إضافة إلى عدد من النماذج التي تظهر متغيرات متبادلة تم اقتراحها.

إلى جانب ذلك، ثمة محاولات أجريت، أهمها تلك التي قام بها بوير Boyer وزملاؤه في مؤسسة كارنيجي Carnegie Foundation في الولايات المتحدة الأمريكية، لتجاوز الفصل بين البحث والتعليم عن طريق إعادة تحديد طبيعة الممارسة الأكاديمية، أو ما سماه بوير عام 1990 بـ «العمل التعليمي». فكان للنماذج الأربعة التي أنتجها بوير أثر في تشجيع الناس على تغيير فكرتهم عن عمل الجامعات. أما خارج الولايات المتحدة، فقد كان للأفكار عن أستذة التعليم، على وجه الخصوص، أثر كبير في تغيير فكرة الناس عن التعليم بشكل عام، وعن تطور التعليم، على وجه الخصوص.

الغرض الذي سعى إليه بوير كان «التخلص من الجدل القديم البالي الذي يضع التعليم مقابل البحث، واللجوء إلى طرق أكثر إبداعاً لتعريف معنى أن يكون المرء طالباً». (بوير 1990: 12). أما قصدي هنا فهو مختلف إلى حد ما؛ فأنا لا أهدف إلى تقديم صورة عن كيفية وجوب فهم التعليم والبحث، بل أسعى إلى استكشاف

النظرة التقليدية إلى العلاقة بينهما. فأدرس السلطات الخارجية التي قررت كيفية فهم الأكاديميين وغيرهم في التعليم العالي لهذه العلاقة، وأظهر بعض الافتراضات التي شكلوها عن التعليم والبحث، بل وعن الممارسة الأكاديمية بشكل عام. لذلك فإن الجزء الأول يقدم كشفاً عميقاً للسلطات والأفكار، داخل المجتمع الأكاديمي، التي تؤيد المناقشات في العلاقة بين البحث والتعليم. وهكذا يعمل هذا الجزء على ربط الأفكار عن الممارسة الأكاديمية مع النظرية التعليمية، ويقود إلى تطوير نموذج مفاهيمي يدمج التعليم بالبحث، الأمر الذي يتفتّق عن عدد من المقترحات لتجاوز الفصل بين البحث والتعليم، ما يقدم هيكلاً للدراسات التي تتضمنها الأجزاء الأخرى من الكتاب.

يصف المقطع 1 السياق الراهن للعلاقة بين البحث والتعليم. ويدرس السبب الذي أثار انتباه الجامعات إليها في الزمن الحاضر. كما يدرس كيف عملت العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية على جعلها علاقة جدلية بوضوح، وكيف ولّد التحرك باتجاه تعميم أنظمة التعليم العالي صراعاتِ قيمةٍ، نظراً لحاجة الجامعات إلى أكثر الأفكار نخبوية واتزاناً. التي يتوقع منها بالضرورة، وفي الوقت نفسه، أن تعلم مجتمعاً متواضعاً. ويبين تعميم التعليم العالي الحاجة إلى تقديم عرض جديد لأسباب حاجة الطلاب في هذه الأيام إلى البحث. وذلك بعد أن غدا من الواضح تماماً أن قلة قليلة منهم سيتخذون مهناً يكون فيها التركيز الأساسي على البحث الأكاديمي. ثم يختتم المقطع 1 بإيضاح هذا العرض للأسباب في ضوء المطالب الحرفية في القرن الحادي والعشرين، فهذا يقدم حجة مقنعة لأسباب الحاجة إلى القيام بمحاولات في سبيل دمج البحث والتعليم.

ولإدراك كيفية تجاوز الفصل بين البحث والتعليم، من المهم استكشاف معنى البحث ومعنى التعليم. يبدأ المقطع 2 بعرض نموذج عن الطريقة المتعارف عليها لفهم هذه العلاقة. وقد قيل بأن هذا النموذج يستند إلى آراء معينة عن طبيعة التعليم، وطبيعة البحث، وتوليد المعلومات. وباعتماده على البحث، في كيفية فهم الأكاديميين لهذه الفعاليات، يستكشف المقطع مفاهيم يتضمن النموذج دلالات عليها. ثمة من يرى أن

تحسين الأفراد لطرق فهمهم وممارستهم للتعليم والبحث والمعلومات، سيغير طريقة فهم العلاقة بين البحث والتعليم. وهكذا يقدم المقطع نموذجاً جديداً لهذه العلاقة، مرتكزاً على أفكار الشمول وبناء المعلومات وطرق جديدة لفهم التعلم والتعليم، وأفكار موسعة عن البحث والتعليم المستند إلى البحث، وأفكار عن الحرفية الأكاديمية في جو عمل تشاركي يجمع الأكاديميين والطلاب في مجتمعات تعليمية. ثم يختتم المقطع بنقاش في التحديات التي يفرضها هذا النموذج على مستقبل التعليم العالي.